بسم الله الرحمن الرحيم

**قراءات في كتابي " منهاج المتعلمين " و " مختصر فاكهة ابن السبيل " .**

السادة الحضور ،،، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

لقد شاع في مجتمعنا قديمًا التداوي والعلاج بأساليب بدائية متعددة، توضح لنا الصراع مع البيئة من أجل البقاء، فالحياة سابقاً جعلت الإنسان يعتمد على نفسه في علاج الأمراض المختلفة، ولا ينكر أحد أن ما خلفه الأجداد لنا من كنوز تتمثل في مخطوطات تحتضن بين صفحاتها القيمة التاريخية والدينية واللغوية والفلسفية والجغرافية والفلكية والعلمية وغيرها ، التي تعد أعظم وأهم ارث في تاريخ البشرية .

ومن أهم هذا الإرث الغني وأبرزها كتابين ، خطهما مبدع من مبدعي عمان السابقين الذين كان لهم الأثر الطيب في البحث عن وسائل لتخفيف ألم الناس والسعي وراء استغلال البيئة الزاخرة بالنعم في هذا التخفيف والعلاج، وهو كتاب: " منهاج المتعلمين " ، وكتاب "مختصر فاكهة ابن السبيل" للطبيب الشيخ راشد بن عُميرة الرُّسْتاقي الذي يعد أحد روافد العلم في المكتبة الطبية العمانية والتي لا يمكن الاستغناء عنها لما يمثله من وسائل علاج وتجارب يمكن الاسترشاد بها في عصرنا الحاضر، كما أن هذان الكتابين يشهدا على حقبة من الزمن برع فيها العمانيون الذين صالوا وجالوا في هذا الميدان، فظهر الطب العماني على أيديهم شجرة وارفة الظلال.

وقد كان راشد بن عُميرة الرُّسْتاقي طبيب أهل زمانه، وأوسعهم اطلاعًا، ويشهد بذلك مؤلفاته، وأراجيزه الطبية، وقد استوفى أدواته العلمية من حيث اعتماده المصادر، والتجربة، والقياس، والمشاهدة، والسماع كآليات عمل يفيء إليها في ممارسته الطبَّ، أو التأليف فيه.

تتحدث اليوم عن كتاب "منهاج المتعلمين " و "مختصر فاكهة ابن السبيل" أحد المصادر المفيدة في العلاج لذلك وضع المؤلف أساليب العلاج بطريقة تيسر على المعالج مداواة المريض، فهو يذكر المرض وأعراضه ثم يصف الدواء له .

قسم المؤلف كتابه " منهاج المتعلمين " تقسيما منهجيا ، إلى فصول تتضمن أمراضا بين طريقة علاجها بوسائل العلاج المتاحة له آنذاك ، فبعض الأمراض تعالج بالأدوية وبعضها بالتدخل الجراحي ، وقد رتب فصول الكتاب ترتيب يعتمد على ترتيباً أعضاء بدن الإنسان مبتدئا بما يصيب الرأس وصولا إلى ما يصيب القدمين .

ومنهجه في تأليفه يعتمد على ذكر المرض، ثم أعراضه، ثم وسائل علاجه .

ولقد تأثر المؤلف في منهجية علاجه بالمبادئ التي قام عليها الطب العربي على مدى العصور وهي نفس المبادئ التي قام عليها الطب اليوناني ، وظلت مستعملة حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، وهذه المبادئ أصبحت الآن غير مألوفة أو مقبولة ، مع التطور الحديث في العلوم الطبية ، حيث إن تلك المبادئ كانت تستند على نظريات فلسفية . وردت في كتب الطب القديمة ، وكانت تبحث في مكونات الجسم البشري ( العناصر أو الأركان ) ، وفي أخلاطه وأمزجته وأرواحه .

بدأ المؤلف بمقدمة موجزة أوضح فيها أنه أراد من مؤلفه أن يقدم جوابا لما سأل عنه ولده "عمُيرة" فجاء الجواب مجموعة من الفوائد الدقيقة المحكمة ، ولما كان السائل هو ولده فقد بدأ حديثه معه بما يجب على الوالد نحو ولده من نصح وتوجيه وإرشاد، مقرونا بالدعاء له .

وكان أول ما سأل الولد والده عنه هو منزلة العقل والأدب، وأثرهما في تكوين شخصية الإنسان .

ويجيب الوالد مبينا أن العقل هو مناط الأمور كلها ، فبكماله يكمل الأدب ، وأن العقل نور إذا منح لإنسان فقد نال خيري الدنيا والآخرة.

كما حذر الوالد ولده من التقصير في استخدام حواسه التي هي آلات العقل .

ثم قسم العقل إلى قسمين :

عقل مثمر واع متأمل متدبر يصل بصاحبه إلى الرشاد، ويرفعه إلى درجات المقربين .

وعقل عقيم ، وهو قسمان :

عقل يبلغ صاحبه المراد من أمور الدنيا فقط ،وعقل يعجز عن إيصال صاحبه إلى مراد الدنيا والآخرة .

ولما كان الإنسان لا يستطيع العيش بمعزل عن الناس ، وأنه لا محالة مخالطهم فقد بين لولده أجناس الناس، وحذره من سوء الخلُق والطمع .

ثم يجيب على سؤال ولده عن العلوم التي يحتاج إليها الإنسان فبين أنها علم يعنى بحفظ الصحة ، وذاك متمثل في علم الطب ، وعلم يقوم للناس اعوجاجهم الخلقي وسلوكهم ، ويصحح لهم مفاهيمهم .

ثم بدأ تأليف وقد وزع المؤلف محتويات كتابه على ثلاثة وأربعين فصلا، شملت العديد من الأمراض التي تصيب مواضع مختلفة من الجسد.

وكتاب " مختصر فاكهة ابن السبيل " بدأ الطبيب راشد ، باستعراض الأمراض في ترتيب تنازلي من قمة الرأس إلى أخمص القدمين فيستعرض أمراض الرأس ، ثم العين ، ثم الأنف ، ثم الأذن ، والفم ، ثم الحنجرة وهكذا ... وتناولت الأبواب الأخيرة عمل المراهم ، والأدوية المختلفة ، وأوزانها ، وانتهاء بتفسير الأدوية في الباب العاشر . وقد جعل تحت الأبواب فصول يشرح في بعضها ويختصر في الكثير منها .

وكان القصد من تأليف الكتاب جعله دليلًا طبيًا سريعًا يلجأ إليه الحكيم حين يرغب في معرفة علاج مرض ما بسرعة ، دون الغوص في التفاصيل المسهبة التي قد تضيع وقته ووقت مرضاه .

إن التأمل في فصول هذا الكتاب يعطينا فكرة واضحة عن غزارة علم المؤلف وعن فطنته ، وخبرته الواسعة ، ولا يخفى الجهد الذي بذله في جمع هذه المادة الغزيرة وعرضها . وأن تداول هذا الطب الشعبي لم يخل من أسس علمية ، ودراية ، وفهم وشروط خاصة ، وأنه لم يكن ممكنًا لأي شخص أن يزاول هذه المهنة ويتقنها من فراغ ، فكانت الممارسة مبنية على دراسة وأخذ عن شيوخ علم وإطلاع على كتب السابقين ، ولذا فإننا لا نستغرب التقسيم العلمي الذي اتبعه صاحب الكتاب ، وتركيزه على جوانب هامة في شرح الأمراض ودراستها ، فالعلم الحديث يقوم على التشريح وعلم الوظائف ، ودراسة مسببات الأمراض ، ودراسة مكونات الأدوية ونتائج استخدامها ، والجوانب النفسية للعلاج وعبر كتاب " مختصر فاكهة ابن السبيل " شاهدنا نماذج كثيرة على ذلك .

لذا فإننا نقر أن هذا الكتاب حاول قدر المعرفة المتاحة في ذلك الزمان اتباع منهج علمي واضح وجلي ، وأن أية معلومات طبية غير دقيقة بالنسبة لمقاييسنا الحالية ، إنما يجب أن تقاس وفق المعرفة الموجودة آنذاك ، ولذا فإن الكتاب إنجاز هام وتوثيق حضاري مهم ، والنقطة الأخرى التي لا تقل أهمية هي البناء المعرفي ، ومواصلة ما وصل إليه الآخرون ، والاستفادة من تجاربهم ، لذا وجدنا تقاطع وتوازي نماذج من طب ابن عميرة مع الطب النبوي ، ومنهج الشيخ ابن سينا ، والطب الشعبي العربي ، ووجدنا أيضا أن أخلاقيات ابن عميرة في عمله ، ومنهاجه كانت سبب نجاحه ، ونظام تقسيمه للمرضى ، وثقته في علمه ، ومعرفته التامة بالأدوية المستخدمة للدرجة التي تمكنه من تمييزها من طعمها ، لقد كان حكيمًا شاملًا بمعنى الكلمة .

حتى مقارنة بطبنا الحديث ، فإننا نجد العديد من المعلومات الصحيحة والمتطابقة مع صاحب كتاب " مختصر فاكهة ابن السبيل " ، وبعض المعلومات تحتاج دراسة تخصصية في علم الأدوية لتجربتها .

ومن الواضح أن كتاب " منهاج المتعلمين " و "مختصر فاكهة ابن السبيل" يقع تحت ما يسمى بعلم الطب وقد يقع في الصيدلة كذلك. وليس ذلك بمستغرب فلطالما اقترن هذان العلمان اقتراناً حميمياً لحاجة الداء بعد تشخيصه إلى دواء يعالجه، أو يسكّنه، أو يقضي عليه، ويذهب بعض الدارسين إلى أنَّ "الحديث عن الأدوية المفردة لم يكن دائماً مستقلاً عن الحديث العام في الطبّ والصيدلة، بل كان جزءاً منه، يفرد بباب خاص ضمن أبواب تتّصل بالطب، والصيدلة عامة" ، ونستطيع القول باطمئنان إنّ هذان الكتابان يقعان تحت ما يُصطلح عليه في مصادر الطبّ العربي وتاريخه بكتب العلم والعمل، فهي تتحدّث عن أجزاء جسم الإنسان والعلل التي تصيب هذه الأجزاء معتمدة على التشريح والتجربة من جهة، وتقدّم الطرق المتنوعة الكفيلة بمداواة هذه العلل من جهة أخرى، يضاف إليها حديث طويل عن الدواء، وتركيبه، وأنواعه، وأوزانه.

ويعتبر الجانب الديني أحد المصادر التي اعتمد عليها راشد بن عمُيرة كثيراً ونريد به الإيمان بالله سبحانه وتعالى إيماناً مطلقاً، والتسليم لقضائه، وأنَّ مردَّ الأمر كلّه إليه سبحانه، فهو المعين، وهو الشافي. وقد لمست هذه الروح المؤمنة منتشرة انتشاراً بيّناً في ثنايا كتابه، وأعتقد أنّه يستمدّ منها القوة، والعزم على مداواة الناس، والتعامل مع أبدانهم، ووصف الأدوية لهم، فهذا واضح عندما يختم كلامه بعد وصف الدواء بإيكال الأمر إليه سبحانه وتعالى ، فبيده مقاليد كلّ شيء، ولم تمنعه هذه الروح المؤمنة بالله سبحانه من الأخذ بالأسباب، وتوظيف ما يعرفه من وسائل لاستجلاب الشفاء. ولكنّ الأساس في ذلك كلّه هو الإيمان بمشيئة الله سبحانه فهو المدبّر الحكيم.

كذلك يمكن لنا أن نتحدث عن منهجية المؤلف في كتاب " منهاج المتعلمين " و " مختصر فاكهة ابن السبيل " من زاويا الأخذ من المصادر الطبية سواء الأعجمية أو العربية وعن طريق التجربة والمشاهدة و السماع .

إن الاعتماد على المصادر ، خطوة منهجية لا غنى عنها لمن يريد ممارسة الطبّ، أو التأليف فيه، إذ تقدّم تلك المصادر مادة معرفية جاهزة تكوّنت من خلال الخبرة المتراكمة الطويلة، واضطلع بقسم منها أطباء مشهورون لهم في تاريخ الطبّ باع طويل.

ومن الممكن جعل ما نريده بالمصادر هنا في قسمين كبيرين تنضوي تحتهما أقسام أصغر، أمّا القسم الأول فيتضمّن الحديث النبوي الشريف، وما أُثر عن الأطباء العرب، والأعاجم من أفعال وأقوال طبية. ويتمثّل القسم الثاني في الكتب الطبية المعتبرة التي ذكرها الطبيب راشد بن عمُيرة بنفسه صراحة ويجعلها معتمده في ممارسة الطبّ، والتأليف فيه على حدّ سواء.

ولم يقف الطبيب راشد بن عمُيرة أمام تلك المصادر موقف الأخذ والتسليم فحسب، بل كانت له ذخيرته من مشاهداته الشخصية، وتجاربه الخاصة، تلك التي اضطلع بها ردحاً طويلاً من الزمن، فكان أشبه بذلك الذي يبني بناءه الجديد على أسس متينة ثابتة، وهذا ما لمسناه في هذان الكتابان .

فقد نظر، ولاحظ، وقاس، وجرَّب، وأعمل اليد، وعالج المرضى، ووصف الدواء، وحضّره بنفسه،واخترع، فهناك في مؤلفه إشارات كثيرة إلى هذا الذي نذهب إليه، فهو أقرب إلى طبيب العمل منه إلى طبيب النظر ، وذكر بعض العبارات التي تدل على ذلك. مثل قوله : (ومما عالجت به / ولقد شاهدت كثيراً / وسمعنا أناساً يزعمون / جيد مجرب، صحيح عجيب / وَمِـمَّا عالجنا به / اخترعناه / سمعت من جرب / َمِـمَّا رأينا في زماننا / كتبتها سماعا / فلم أجد لأحد من الأطباء فيه أثراً .. وعالجناهم / وهذا من الأدوية التي لم نجد لها أثراً في كتب الطب / وهذا مِـمَّا عالجت به ولم أجد له أثرا ) .

وهذا ملمح منهجي مهم يخرجه عن الحياد في النقل عن المصادر إلى فضاء هو أرحب منها، وذلك باعتماده على ذاته في مواجهة الحالات المرضية، والعمل على معالجتها. وعلى تجاربه الشخصية، وممّا عملته يداه، وهو يمزج العلاج بتحضير الدواء.

لقد تلقى الطبيب راشد عمّن سبقه من أطباء أسرته كوالده، وجدّه، صنعة الطب ، واختبر بالمعاينة ما يقومون به من أعمال فاضلة في تطبيب المرضى وعلاجهم، أو سماعه عنهم تفاصيل وافية عن الأمراض وعلاجها، ونراه يشير في موضع إلى مسألة السماع . ولاشك أنّه يريد بالسماع ما أشرنا إليه من سماعه عن أطباء أسرته وغيرهم . ومدى إفادته من السماع بحيث اعتمده مصدراً من مصادر تلقّيه العلم.

إن القارئ لكتاب " منهاج المتعلمين " و "مختصر فاكهة ابن السبيل " يرى كيف أن المؤلف كتبه بأسلوب عربي فصيح، يعتمد الوضوح، والدقّة، والمباشرة، ويبتعد عن التزويق اللفظي والزخرفة اللغوية، والتصوير بأنواعه، فهو بإزاء مادة علمية صرف، وهو يستهدف بها المتعلّمين، والأطباء، فلم يكن له إلا أن يسلك هذا الطريق، وقد نجح أيّما نجاح في توصيل أفكاره عبر تلك اللغة الواضحة الخالية من التعقيد البعيدة عن المعاظلة والالتواء.

ولاشكَّ في أنّه كان يصدر في أسلوبه ذاك عن مخزون لغوي ثري، ومعجم لغوي وافر، فهو يوظّف ذلك المعجم في تقويم لغته، وتقديمها بصورة مشرقة مفهومة ولا ننسى بهذا الصدد أنَّه كان شاعراً، وإن شئنا الدقة فقد كان نظّاماً من نوع معين، سخّر نظمه لما هو مشغول به وهو الطبّ والصيدلة.

وعن المصطلح الأعجمي في كتاب " منهاج المتعلمين " و "مختصر فاكهة ابن السبيل" ،لم يكن الطبيب راشد بن عمُيرة بدْعاً في توظيف المصطلح الأعجمي ([[1]](#footnote-1))، واستخدامه في كتبه فهي ظاهرة شائعة في كتب الطب والصيدلة العربية، ولهذه الظاهرة ارتباط وثيق بظاهرة سبقتها وهي إنَّ كتب الطب والصيدلة الأعجمية المنقولة إلى العربية قد بقيت فيها مصطلحات أعجمية كثيرة على حالتها الأعجمية" ، ولذلك تغلغلت تلك المصطلحات إلى الكتب المؤلفة بالعربية، وظلّت باقية فيها لأسباب كثيرة، ويعالج اللغويون هذه الظاهرة تحت ما يسمى بـ [ الاقتراض اللغوي ] وهو أخذ لغة من لغة أخرى كثيراً من ألفاظها المصطلحية بسبب الاحتكاك الحضاري بين اللغتين ، ورغبة اللغة المقترضة وفق شرائط حضارية بالإفادة من المنجز اللغوي للّغة الأخرى، ولذلك شاعت تلك المصطلحات الأعجمية في المترجمات والمؤلفات على حدّ سواء ،بسبب رغبة العرب بالإطلاع على المنجز الثقافي لدى الأمم الأخرى إبان نهضتهم الفكرية في العصرين الأموي والعباسي. وقد أوردها الطبيب راشد بن عمُيرة كما سمعها، أو قرأها، ولكنّ بناء النصّ عنده يظلّ عربياً فصيحاً .

ومن هنا نستطيع تفسير وجود تلك المصطلحات الأعجمية في كتاب الطبيب راشد بن عمُيرة فهو يستقيها من منهلين: أولهما المصادر التي تورد تلك المصطلحات بألفاظها، وصيغها الأعجمية، وثانيهما المناخ الطبي الذي تنفّس فيه، وأفاد منه، فهو يستخدم تلك المصطلحات كما تناقلها الخلف عن السلف فلم يكن للطبيب راشد أن يخرج عمّا صار أشبه بالتقليد الطبي من حيث استخدامه تلك المصطلحات كما استقاها .

كما أنه حاول أن يعرّب بعض أسماء النباتات المستخدمة في الأدوية وهي بلا شك محاولة منه تستحق التقدير، وذلك لجعل الطبّ عربياً حتى بمصطلحه، وهي وإن كانت محاولة يعوزها الاستقصاء غير أنّها تشير إلى وعيه بهذا الموضوع، واهتمامه به حرصاً على لغته من جهة، وتقريباً لكتبه من الأفهام من جهة أخرى .

كما أورد الطبيب راشد بن عمُيرة بعض أسماء النباتات المستخدمة في الأدوية بما هو مصطلح عليه في عمان ،وهذا ما ذكرنا سابقاً من تأثير المنطقة والمناخ وحتى يسهل على المداوي من معرفة الدواء وأذكر هنا مثالاً على ذلك : ( المثيبة والحلول ..الخ ).

ولم يخلو الكتابان من العلاج البيطري ، فقد ذكر علاج جرب الحمير وغير ذلك ، فهو بحق موسوعة طبية ممكن استخراج وسائل علاج لأمراض في وقتنا الحاضر قد عجز الطب عنه فهو يحتاج لوقفه ودراسة من المتخصصين والأطباء.

ويمكن اختصار ملامح منهج المؤلف في النقاط الآتية :

-الاعتماد على الأدوية الموجودة المتوفرة التي تأكد من نتيجتها وفاعليتها .

-الاعتماد على الملاحظة والتجربة في الوقوف على تأثير الدواء أو الجراحة في البدن ، فما صحت تجربته وتأكد فعله عنده عني به ووصفه للمرضى .

- عني بتتبع مراحل تطور المرض مبيناً علامات المرض في كل مرحلة ، والدواء المناسب لكل منها .

- يستطرد أحيانا في وصفه للعلاج ، فيتطرق إلى أمراض وعلاجات غير التي تخص حديثه ، كما فعل عند حديثه عن الفالج وعلاجه .

- الاعتماد على جميع أشكال الدواء المفرد منه والمركب ، وعلى كافة صوره سواء ما كان منه شراباً أو حقناً أو حبوباً أو دهناً ، وعلى الكي والفصد والحجامة وغيرها .

- وصف الكثير من العمليات الجراحية في كثير من أعضاء الجسد معتمداً على الوصف الدقيق لوضع الطبيب والمريض وطريقة إجراء العملية الجراحية ومحاذيرها ، وتدارك مضاعفاتها ، ومتابعة المريض بعدها حتى يتم له الشفاء.

- عنايته بغذاء المريض وبيان أثره سلبا وإيجابا ، واصفاً ما يجب تناوله لما له من أثر في سرعة الشفاء وما لا يجب تناوله لما له من مضاعفات .

- بين أن المرض يمكن أن يسببه أكثر من سبب كالصداع مثلاً فقد يكون بسبب حمى ـ أو بسبب خلط سوادوي ، أو من برد ، أو خلط حار ... الخ وبين أن لكل نوع منها دواء يناسبه .

- كان المؤلف صاحب ابتكارات جديدة علاجية وجراحية ، وقد ذكر العديد منها مبينا أنه لم يسبق إليها ، أو أنها من اختراعه .

- التحذير من إهمال المريض والتأخر في علاجه ، وما يمكن أن يفعله ذلك من مضاعفات قد تصل بالمريض إلى أمراض أخرى أشد وطأة يصعب علاجها .

وفي النهاية يمكن القول بأن الطبيب راشد بن عمُيرة بتقليبه الأمور على وجوهها ، قد أكسبه ذهنه المتفتّح قدرع لى ربط النتائج بمقدماتها، واستخدام البرهان في وصف المرض، ووضع العلاج له من خلال الربط المنطقي بين المرض وأسبابه .

شكرا لكم على حسن الاستماع ،،، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الدكتور : عبدالله بن علي بن سعيد السعدي .

1. **(1)- المقصود بالمصطلح الأعجمي هو ذلك اللفظ الذي بقي على وضعه اللغوي السابق بعد نقله إلى العربية، كأن يكون منقولاً من اليونانية، أو الرومية، أو السريانية، أو الفارسية، وظلّ في أغلب الأحيان يشير إلى دلالته في لغته الأصلية حتى بعد نقله إلى العربية.** [↑](#footnote-ref-1)